الفصل الأول

أبو بكر فى حياة النبى

نشأته الأولى وقلة الأخبار عنها

ليس فيما انحدر إلينا من الروايات عن نشأة أبى بكر الأولى ما يعاون على تعرُّف شخصيته فى هذا الطَّور من حياته . فما يروى عن طفولته وعن صباه لا غناء فيه . وما يروى عن أبيه وعن أمه لا يعدو ذكرَ اسميهما ، وذكر ما كان من أبيه بعد أن أصبح أبو بكر رجلا من كبار المسلمين له فى حياة أبيه أثر ، ولا أثر لأبيه فى حياته . وإنما يعنى المؤرِّخون من أمره بذكر قبيلته ومكانتها من قريش ، شأنُهم فى ذلك كشأنهم فى غيره مما يتصل بتاريخ العرب ؛ إذ يرون فى نسبتهم إلى قبيلة من القبائل ما يفسّر بعض طباعهم وأخلاقهم . وقد يكون ذلك حسنا ، وقد يراه المؤمنون بمبدأ الوراثة صالحاً لتحقيق مذهبهم ، وإن رأى غيرهم من المبالغة فى تقديره ما يصرفهم عن الدقة فى تمحيصه .

قبيلته وتوليه الزعامة فيها

وأبو بكر من قبيلة تَيْم بن مُرَّة بن كعب ؛ فهو يلتقى فى نسبه بالنبى ويرتفع إلى عدنان . وكان لكل من القبائل المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل أو لا يتصل بمناصب الكعبة . فكان لبنى عبد مناف السِّقاية والرِّفادة ، ولبنى عبد الدار اللواء والحِجابة والنَّدوة ، وذلك قبل أن يولد هاشم جدُّ النبى . أما قيادة الجيوش فكانت لبنى مخزوم أجداد خالد بن الوليد ، وكانت الديات والمغارم لتيم ابن مرة . وقد آل أمر الديات فى الجاهلية إلى أبى بكر حين اشتد ساعده فتولى الزعامة فى قبيلته ؛ لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه .

وقد رُوِيتْ فى الإشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصها كتب المتأخرين . ذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حُجْر الكندىّ فأجاره المُعَلَّى التيمى ؛ فقال امرؤ القيس فى ذلك :

أقرَّ حَشَا امرِئ القيسِ بنِ حُجْرٍ بنو تيمٍ ، مصابيحُ الظّلام

ولهذا البيت سمى بنو تيم « مصابيح الظلام » .

على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لا يختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها لذلك بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيمن ينسب إليها . فهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما إليها ما تشترك القبائل العربية التى تعيش تحت سماء شبه الجزيرة فى التمدح به والانتساب إليه .

اسمه ولقبه وكنيته

لهذا لم يقف مؤرخو أبى بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ؛ وإنما بدءوا روايتهم بذكره وذكر أبويه ، ثم تخطّوا طفولته وصباه إلى شبابه وإلى ما كان يزاوله فيه من عمل . ذكروا أن اسمه عبد الله بن أبى قُحافة ، وأن أبا قحافة أبوه ، واسمه عثمان بن عامر ، وأن أم الخير أمه ، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر . ورُوى أنه كان يدعى قبل الإسلام عبد الكعبة ، فلما أسلم دعاه رسول الله عبد الله . وقيل إنه كان يسمى عتيقاً ؛ لأنه لم يكن يعيش لأمه ولد ، فنذرت أمه إن وُلِدَ لها ولدٌ أن تسميَه عبدَ الكعبة ، وتتصدقَ به عليها . فلما عاش أبو بكر وشبَّ سمى عتيقاً ، كأنه أُعتق من الموت . على أن الرواة يذهبون إلى أن عتيقاً لم يكن اسمه وإنما كان لقباً غلب عليه لبياض لونه . وتذهب رواية أخرى إلى أن عائشة ابنته سئلت : لمَ سمّى أبو بكر عتيقاً ؟ فقالت : نظر إليه رسول الله فقال : هذا عتيق الله من النار . أو لأن أبا بكر أقبل يوماً ومعه طائفة من أصحابه فقال رسول الله : « من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا » . أما كُنية أبى بكر

التى لزمته حياتَه فلم تذكر الروايات سببها ، وإن ذكر بعض المتأخرين استنباطاً أنه كُنِيَ بها لأنه بكر بالإسلام قبل غيره .

صباه وشبابه

وقد عاش أبو بكر فى طفولته وصباه عيش أمثاله بمكة . فلما تخطَّى الصِّبا إلى الشباب عمل فى التجارة بزّازاً يبيع الثياب ، فوُفِّق كلَّ التوفيق . وقد تزوّج صدرَ شبابه من قُتَيْلة بنت عبد العُزَّى ، فولدت له عبد الله وأسماء . وأسماء هى التى لقبت من بعدُ ذاتَ النطاقين . وتزوّج بعد قُتَيْلة أُم رومان بنت عامر بن عُوَيْمِر ، فاستولدها عبد الرحمن وعائشة . ثم تزوّج بالمدينة من حبيبة بنة خارجة ، ثم من أسماء بنت عُمَيْس فولدت له محمداً . وكانت تجارته أثناء ذلك تزداد سعة وتزيده ربحاً وثراء .

خلقه وخلقه

ولعل شخصه وخلُقه كانا من أسباب نجاحه فى هذه التجارة . فقد كان أبيض اللون ، نحيفاً ، خفيف العارضين ، معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتئ الجبهة ، عارى الأشاجع . كذلك وصفته ابنته عائشةُ أم المؤمنين . وكان رجلا رضيَّ الخُلُق ، رقيق الطبع ، رزيناً ، لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان ، لرزانته وحسن رأيه ورجاحة عقله ، لا يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم . ذكرت عائشة أنه لم يشرب خمراً فى جاهلية ولا إسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكة الخمر وإدمانهم لها . وكان نسّابة ، حسن الحديث ، لطيف المعاشرة . وصفه ابن هشام صاحب السيرة فقال : « كان أبو بكر رجلا مألفاً لقومه ، محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته » .

حيه بمكة واتصاله بمحمد

وكان يعيش بمكة فى الحي الذى تعيش فيه خديجة بنت خُوَيلِد ، ويعيش فيه التجار النابهون الذين تذهب تجارتهم فى رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام

وإلى اليمن . ومُقامه بهذا الحيّ هو الذى ربط بينه وبين محمد بروابط الألفة بعد أن تزوّج محمد من خديجة وانتقل إلى دارها . وكان أبو بكر يصْغُر محمداً بسنتين وأشهُر . وأكبر الظن أن التقارب فى السن والاشتراك فى العمل والاتفاق فى سكينة النفس ورضا الخلق ، وفى الرغبة عما تُزاول قريش من عادات وعقائد — أكبر الظن أن هذا كُلَّهُ كان ذا أثر فى مودة محمد وأبى بكر مودة يختلف الرواة إلى أى حد توثقت عراها قبل أن يبعث محمد رسولا . فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعث ، وأن توثُّقَ عُراها كان ذا أثر فى سبق أبى بكر إلى الإسلام . أما غير هؤلاء فيذكرون أن صلة الرجلين لم تتوثق إلا من بعد ، وأن مودّتهما الأولى كانت مودّة جوار وتوافق فى الميول ليس غير . ولعل أصحاب هذا الرأى يؤيدونه بما عُرف من حب محمد العزلة والانقطاع عن الناس سنواتٍ طويلة قبل بعثه . فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله ، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحَد ؛ ولم يتردد أبو بكر أن أجاب داعى الله . ومن يومئذ توثقت الصلة بين الرجلين ، ثم زادها صدق أبى بكر فى الإيمان بمحمد ورسالته متانةً وقوة . كانت عائشة تقول : « ما عَقَلْتُ أبوَىَّ إلا وهما يدينان الدِّين . وما مرّ علينا يوم قطُّ إلا ورسول الله يأتينا فيه بُكْرةً وعشيّة » .

عدم تردده فى قبول الدعوة ، وسببه

ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر محمداً فى الدعوة لدين الله . وكان إلفُ قومه إياه وحبُّهم الجلوسَ إليه والاستماع لحديثه ، ذا أثر فى استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة . فقد تابع أبا بكر على الإسلام عثمانُ بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عُبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام . كما أسلم من بعدهم ، بدعوة أبى بكر ، أبو عبيدة بن الجرّاح وكثيرون غيره من أهل مكة .

وقد يعجب الإنسان كيف لا يتردد أبو بكر فى قبول الدعوة إلى الإسلام أول ما وجهها محمد إليه ، وكيف يبلغ من عدم تردده أن يقول عنه رسول الله من

بعد : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم[1] حين ذكرته له وما تردد فيه » . وليس كل العجب أن محمداً ذكر له التوحيد ودعاه إليه فاستجاب له ، بل أكبر العجب أن محمداً قص عليه حديث حِرَاء والوحى الذى نزل عليه ، فلم يتردد فى تصديقه . وإنما يزيل عجبنا ، أو يخفف منه ، أن أبا بكر كان من حكماء مكة الذين يرون عبادة الأصنام حمقاً ومیناً ، وأنه كان يعرف من أمر محمد وأمانته وصدقه ورُجحان عقله ما لم يدع فى نفسه موضعاً للريبة فيما قص عليه مما رأى وسمع ، وبخاصة لأنه رأى فى هذا الذى قصه الرسول عليه ما يتفق وموجب الحكمة وما لا يتردد العقل فى تصديقه والأخذ به . على أن ما يزول من عجبنا لا يغير من تقديرنا جرأة أبى بكر فى إقدامه ومجاوزته المعروف للناس فى موقف دعا غيره ممن وجِّهت الدعوة إليهم للنظر والتردد والتماس الأناة والروية . وجرأة أبى بكر وإقدامه أجدر بالتقدير لأنه كان تاجراً تقتضيه تجارته الحساب لصِلاته بالناس وعدم مواجهتهم بما يخالف مألوف آرائهم وعقائدهم خشية ما يجرّه ذلك على معاملاته من سيئ الأثر . فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء الناس ويرونها ميناً باطلا وحديث خرافة ، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضه التماساً للعافية ، وجرًّا للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النفاق فى سواد الناس وعامتهم ما تجده فى الخاصة والمثقفين منهم . بل إنك لتجده فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة الناس والإبانة لهم عن وجه الحق فى الحياة . لا جرم ، وقد كان موقف أبى بكر منذ اللحظة الأولى ما ذكره رسول الله ، أن يكون موضع التقدير غاية التقدير ، والإعجاب غاية الإعجاب .

جرأته فى قبول الاسلام وفى الدعوة إليه

وقيام أبى بكر بالدعوة إلى الإسلام أدعى إلى العجب . فلعل تاجراً مثله يقتنع بصدق محمد قد كان يقنع بتصديقه سرًّا ولا يظهر الناس على شىء من أمره

---

(١) ما عكم : ما تحبس وما انتظر ولا عدل .

حتى تظل تجارته متصلة . ولعل محمداً كان يقنع منه بذلك ويحمده له . فأما أن يظهر أبو بكر إسلامه ، وأن يدعو إلى الله ورسوله ، وأن يصل من دعوته إلى إقناع المسلمين الأولين بتصديق محمد ومتابعته على دينه ، فذلك ما لا عهد للناس به إلا فيمن سَمَت أنفسُهم إلى حيث تقدُر الحقَّ لذاته ، وترتفع به فوق منافع الحياة ، وترى فى تأييده والدعوة إليه ما يُصغر من شأن الدنيا وعرَضها وإن عظُم . ولقد كان ذلك شأن أبى بكر فى صحبته محمداً منذ أسلم إلى أن اختار الله محمداً ، وإلى أن تُوفِّى أبو بكر من بعده .

الصديق أول من أيد الله به دينه

وإنى لأذكر ما كان لإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب من أثر فى توطيد كلمة الإسلام ، وكيف أيّد الله بهما دين الحق ، لما عُرِف عنهما من قوة بأس ، ومضاء عزم ، وصلابة تخيف من يناوئهما ، ثم أذكر الصديقَ وإسلامه فلا أتردد فى القول بأنه أول من أيّد الله به دينه . فهذا الرجل الرضيّ النفس ، الوديع الخلق ، الرقيق الطبع ، حتى لتسرع الدمعة إلى عينه لمرأى الألم يصيب غيره ، قد بلغت قوة إيمانه بالدين الجديد ، وبالرسول الذى جاء به من عند الله ، مبلغاً لا تدانيه قوة ولا يتغلب عليه سلطان . وهل كقوة الإيمان فى الحياة شيء ! وهل كسلطانه فى الحياة سلطان ! . والذين يحسبون أن قوة البطش وسلطان البأس لهما فى الحياة الأثر البالغ يتورّطون فى أفحش الخطأ . فالنفس الراضية المطمئنة إلى إيمانها بالحق ، الداعية إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، المتخذة من وداعة الخلق ، ورقة الطبع ، ومشاركة الضعيف والبائس فى ألم البؤس والضعف وسائلَ دعوتها ، هذه النفس أجدر أن تبلغ من غايتها ما تريد ؛ لأنها تندمج فى غيرها من النفوس فتطبعها بطابعها وتصوغها على غرارها . ولقد كان ذلك أثره — رضى الله عنه — فى السنوات الأولى من الدعوة المحمدية ، وبقى ذلك أثره إلى أن تولى الخلافة وإلى أن مات .

فهو لم يقف من تأييد الدعوة عند التحدث إلى أصحابه و إقناعهم بها ، ولم يكفه أن يبذل للضعفاء والبائسين من رضا نفسه ووداعة خُلقه ما يعزيهم عما كان خصوم الدعوة يُرهقونهم به من أذى وتعذيب ، بل كان ينفق من ماله ، وكان يصطفى بهذه النفقة أولئك الضعفاء والبائسين ممن هداهم الله إلى الحق فأذاقهم أعداء الحق الضر وابتلوهم بألوان البأساء . وحسبك أن تعلم أنه كان له يوم أسلم أربعون ألف درهم مدخرة من ربح تجارته ، وأنه أقام بعد إسلامه يتجر فيجنى وافر الربح ، فلما هاجر إلى المدينة بعد عشر سنوات لم يكن له من ذلك كله غير خمسة آلاف درهم . أما سائر ما كان عنده وما ادخره من بعد ، فقد ذهب فى سبيل الدعوة إلى الله والدعوة لدينه ولرسوله . وأيسر ذلك ما افتدى به الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا ، فعذّبهم سادتهم بإسلامهم ، وأذاقوهم الهُون ألواناً .

إنفاقه من ماله لحماية الضعفاء

رأى أبو بكر يوما بلالا الحبشيّ قد ألقاه سيده على الرمل فى لظى الشمس ، ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت لأنه أسلم . ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرر « أحدٌ أحدٌ » . عند ذلك اشتراه أبو بكر وأعتقه . وعُذِّب عامر ابن فهيرة ، فاصطفاه أبو بكر راعياً لأغنامه . واشترى كثيراً كذلك من الموالى الذين يعذَّبون ، رجالا ونساء ، وأعتقهم .

على أن أبا بكر لم يسلم من أذى قريش ، كما لم يسلم محمد من هذا الأذى ، على رغم مكانته من قومه ومنع بنى هاشم له . ولم ير أبو بكر قريشاً تؤذى محمداً إلا وقف دونه وعرض حياته للذود عنه . روى ابن هشام أن شرّ ما نالت قريش من رسول الله قد كان بعد أن عاب دينهم وسب آلهتهم . فقد اجتمعوا فى الحِجْر يوما « فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه . فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا

مواقفه فى مناصرة النبي

وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ! أنا الذى أقول ذلك . فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ! ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط » .

وليس هـذا الموقف شيئاً إلى جانب غـيره من المواقف التى تجـلّى فيها إيمان أبى بكر بمحمد وبرسالته إيمانا لا يلين ولا يتزعزع . وهذا الإيمان هو الذى جعل غير واحد من المستشرقين يتراجع دون اتهام النبيّ بما يتّهمه به غلاتهم . فما كان أبو بكر فى رزانته ورجاحة عقـله ليصل إلى هـذا الإيمان لو لم يتنزه كل عمل من أعمال الرسـول عن كل شـبهة ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى كان الرسول فيـه موضع الاضطهاد من قومه . وهذا الإيمان الذى امتلأت به نفس أبى بكر هو الذى وقى الإسلام أن ينصرف الناس عنه عندما حدّثهم رسول الله بحديث الإسراء .

موقفـه من حديث الاسراء

فقد تحدث محمد إلى أهل مكة بأن الله أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأنه صلّى هناك . وسَخِر المشركون من هـذا الحديث ، وساور الريب فيه طائفة ممن أسلموا ، وقال يومئذ غـير واحد : هذا والله الأمر البيّن ! والله إن العِير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أيذهب محمـد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! ! وارتدَّ كثير ممن أسلموا . وتردد كثيرون وذهبوا إلى أبى بكر لما يعلمونه من إيمانه وصحبته محمداً ، فذكروا له ما يقوله عن الإسراء . قال أبو بكر وقد تولاه الدهش لما سمع : « إنكم تكذبون عليه » . قالوا : « بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدّث الناس » . قال أبو بكر : « والله لئن كان قد قاله لقـد صدق ! إنه ليخبرنى إن الخـبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » . وجاء أبو بكر إلى المسجد واستمع إلى النبي يصف بيت المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلمـا أتم

النبي صفة المسجد الأقصى قال أبو بكر : « صدقت يارسول الله » . ومن يومئذ دعا محمدٌ أبا بكر بالصدِّيق .

أنخطر ببالك يوماً أن تسأل : تُرى لو أن أبا بكر ارتاب كما ارتاب غيره فى حديث الرسول عن الإسراء ، فما عسى أن يحدث من أثر هذه الريبة فى حياة الدين الناشئ ؟ وهل قدَّرت ما قد يؤدّى ذلك إليه من تضاعف عدد المرتدين ، ومن بلبلة العقيدة فى نفس غيرهم من المسلمين ؟ وهل ذكرت كيف ثبّتت إجابة أبى بكر عقائد الكثيرين ، وكيف حفظت للإسلام يومئذ مكانته ؟ إن كنت قد سألت وقدَّرت وذكرت فلا ريب أنك لم تتردد من بعدُ فى الحكم بأن الإيمان الصادق أقوى سلطاناً فى الحياة من قوى البطش والبأس جميعاً ، وأن كلمة أبى بكر هذه كانت بعض عناية الله بدينه الحقّ ، وأنها نصرته وأيّدته أكثر مما أيدته قوة حمزة وعمر من قبل ، وهى لذلك جديرة بأن تجعل لأبى بكر فى تاريخ الإسلام المكان الذى جعله الرسول له حين قال : « لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكنْ صحبةٌ وإخاء وإيمانٌ حتى يجمعَ الله بيننا عنده » .

وكلمة أبى بكر فى الإسراء تدلُّ على إدراك تام للوحى والرسالة لا يؤتاه كثيرون ، وتريك حكمة الله فى أن يختاره الرسول صفيَّه يومَ اصطفى اللهُ رسولهُ ليبلّغ الناس رسالته . وهى كذلك الحجة البالغة على أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، يخلُد أثرُها على الزمان بفضل الله ، فلا سلطان للزمان عليه ولا يأتى عليه النسيان .

ما كان يقوم به بعد الاسراء

أقام أبو بكر من بعد حديث الإسراء يرعى تجارته فى حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمداخلها ومخارجها ، وينفق جلَّ وقته فى صحبة الرسول ، وفى حماية الضعفاء الذين أسلموا وفى دفع أذى قريش عنهم ، وفى دعوة من تلين قلوبهم للإسلام . هذا وقريش تشتد فى أذى النبي وفى أذى أبى بكر وسائر المسلمين . ولم

يدر بخاطر الصدّيق أن يهاجر مع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم [1] ، بل ظل مع محمد بمكة يجاهد معه فى سبيل الدعوة إلى دين الله ، ويتلقّى عنه ما يوحى الله إليه ليذيعه فى الناس ، ويبذل من رضا نفسه ومن طيبة خلقه ومن حرّ ماله كل ما يستطيع بذله ، لخير من أسلم ، ولهداية من لم يسلم .

وما كان أحوج المسلمين بمكة يومئذ إلى هذا الجهد وإلى هذه الرعاية من أبى بكر ! . فقد كان محمد يتلقى وحي ربه ، وكان قد يئس من استجابة أهل مكة لدعوته ، فوجّه همّه إلى القبائل يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الله . وقد ذهب إلى الطائف يستنصر أهلها فردّوه رداً غير جميل . وكان فى اتصاله بربه دائم التفكير فى رسالته والدعوة إليها وفى الوسيلة لنجاح هذه الدعوة . هذا إلى أن قريشاً لم تسكت قطّ عنه ولم تنقطع عن مناوأته . إزاء ذلك كله أخذ أبو بكر نفسه بالتفكير فى أمر المسلمين المقيمين بمكة ، وفى تنظيم الوسائل للسهر على طمأنينتهم .

اتصاله بالمسلمين وبغير المسلمين لدفع أذى قريش

ولئن لم تذكر كتب السيرة ولم يذكر من أرّخوا لأبى بكر من عمله فى ذلك ما فيه غناء ، إننى مع هذا لترتسم فى نفسى صورة واضحة من عنايته ومن اتصاله الدائم بحمزة وبعمر وبعثمان وبكل ذى رأى فى المسلمين أو سلطان لدفع أذى قريش عن الضعفاء الذين أسلموا . بل إننى لأتصور ما كان من اتصاله بغير المسلمين ممن أقاموا على دينهم ثم كانوا لا يرون أنه من الحق لقريش أن تناوئ من لا يقرها على عقيدتها فى الأصنام وعبادتها . ولقد رأينا فى سيرة الرسول كثيرين من هؤلاء قاموا يدفعون عن المسلمين أذى قريش ؛ ورأينا الذين قاموا فى نقض الصحيفة

---

(١) تجرى رواية بأنه خرج مع المهاجرين إلى الحبشة فلقيه ابن الدغنة فقال له : « ويلك لا تهاجر . إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » . وأجاره ، وأجازت قريش جواره . وأقام أبو بكر بمكة وأقام بفناء داره مسجداً يصلى فيه ويتلو القرآن . فخافت قريش أن يفتن نساءها وصبيانها فشكوه إلى ابن الدغنة فرد أبو بكر جواره وظل بمكة معرضاً للأذى .

إذ تعاهدت قريش على مقاطعة محمد وأصحابه وعلى محاصرتهم حتى احتموْا ثلاث سنوات تباعاً فى شِعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، لا يتصلون بالناس ولا يتحدثون إليهم إلا فى الأشهر الحرم . ويقينى أن أبا بكر قد كان له فى تحريك هؤلاء الذين لم يتابعوا محمداً على دينه ، والذين غضبوا مع ذلك لما يصيبه من أذى قريش ، أثر بالغ أدركه برفقه وحسن حديثه وجميل عشرته .

وما قام به أبو بكر من حماية المسلمين إبّان نشأة الدين هو الذى زاده من محمد قربا ، وهو الذى ربط بين الرجلين برابطة إخاء فى الإيمان جعلت محمداً يصطفيه خليلا . فلما أذن الله لدينه أن ينتصر بقوة أهل يثرب بعد بيعتى العقبة ، أذن محمد لأصحابه فى أن يهاجروا إليها ، كما أذن لهم من قبل فى أن يهاجروا إلى الحبشة . ولم تعرف قريش أيهاجر محمد مع أصحابه إلى يثرب ، أم يظل بمكة كما ظل بها حين هجرة المسلمين إلى الحبشة . أعَرَف أبو بكر من مقصد محمد ما لم تعرف قريش ؟ كل ما يروى عن ذلك أن أبا بكر استأذن محمداً فى الهجرة فقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » ، ولم يزد على ذلك .

إعداده للهجرة ثم الهجرة

هاهنا تبدأ صفحة أخرى من صحف الإيمان القوى الراسخ بالله ورسوله . فقد كان أبو بكر يعلم أن قريشاً قامت ، منذ عرفت بهجرة المسلمين إلى يثرب ، ترد كل من استطاعت ردَّهُ منهم إلى مكة ، لتفتنه عن دينه ، أو تعذبه وتنكّل به . ثم إنه علم أن المشركين اجتمعوا بدار الندوة يأتمرون بمحمد ليقتلوه . فإن هو صحب محمداً فى هجرته فأقدمت قريش على قتل الرسول قتلت أبا بكر لا محالة معه . مع ذلك لم يتردد حين استمهله محمد ، بل شاعت الغبطة فى أنحاء نفسه وأيقن أنه إن يُهاجِرْ مع الرسول يجعل الله له بذلك من الفضل والفخر ما لا يعدِله فضل ولا فخر ، وإن يُقْتَلْ معه فإنما هو الاستشهاد الذى يُجزى صاحبهُ جنة الخلد .

ومن يومئذ أعدّ أبو بكر راحلتين وأقام ينتظر مصيره ومصير صاحبه . وإنه

لفى بيته ذات مساء إذ أقبل محمد كدأبه كلَّ مساء ، وأخبره أن الله أذن له فى الهجرة إلى يثرب . ورغب الصدِّيق إلى رسول الله أن يكون رفيقه فى الهجرة ، فأجابه إلى ما طلب . وعاد محمد إلى بيته وفتيان قريش يحاصرونه مخافة أن يفرّ ، وأسرّ محمد إلى عليّ بن أبى طالب أن يتسجّى بُردَهُ الحضرميَّ الأخضر وأن ينام فى فراشه ، ففعل . فلما كان الثُّلُث الأخير من الليل خرج فى غفلة من فتية قريش إلى دار أبى بكر ، فإذا هو يقظ ينتظره . وخرج الرجلان من خوخة فى ظهر الدار وانطلقا جنوباً إلى غار ثور فاختبأا فيه .

وأطلقت قريش فتيانها فى كل واد وفى كل جبل ، يبحثون عن محمد ليقتلوه . فلما بلغوا ثوراً تسلّقه أحدهم إلى الغار ، لعله أن يعثر به . وتصبّب أبو بكر عرقاً حين سمع تَناديهم ، وأمسك أنفاسه و بقى لا حراك به وأسلم لله أمره . أما محمد فظل فيما كان فيه من ذكر الله والصلاة له . واقترب أبو بكر من صاحبه وألصق به نفسه ، فهمس محمد فى أذنه : « لا تحزن ، إن الله معنا » .

وأدار الفتى القرشىُّ بصره فيما حول الغار فرأى العنكبوت نسجت على فُوَّهته ، فانصرف يقول لأصحابه الذين سألوه ما له لم يذهب إليه : « إن عليه العنكبوت من قبل أن يولَد محمد » . وانصرف الفتية قافلين يعضون البنان ندماً . فلما بعدوا نادى محمد : « الحمد لله ، الله أكبر » . وازداد أبو بكر بما رأى إيماناً وتثبيتاً .

إلام يرجع فزع الصديق حين كانا فى الغار ؟

أفكان فزع أبى بكر حتى ليتصبب منه العرق و يمسك أنفاسه و يلتصق برسول الله بعضَ ما دعا إليه حبُّ الحياة والحرص عليها ، فهو يخشى على نفسه أن يصيبه المكروه ؟ أم أنه لم يفكر فى نفسه ما فكر فى رسول الله ، وأنه كان يودّ لو يفتدى رسول الله بنفسه إن استطاع ؟ . روى ابن هشام عن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الغار لينظر أفيه

سبُع أو حيّـة ، يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه » . وذلك كان شأنه فى تلك اللحظة الدقيقة من حياته حين كان يسمع إلى فتيان قريش ، فيهمس فى أذن النبي : « لو بصر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا » . لم يكن يفكر فيما قد يصيبه ، وإنما كان يفكر فى رسول الله وفى مصير الدين الذى يدعو إليه بأمر ربه لو أن هؤلاء الفتيان ظفروا به فقتلوه . بل لعله لم يفكر فى شيء بذاته تلك اللحظة ، وإنما كان شأنه شأنَ الأم تخشى الخطر على ابنها ، فهى ترتجف وتفزع ويتولاها الهلع ثم لا يساعفها عقلها برأى أو تفكير ، فإذا دنا الخطر منها ألقت بنفسها فى وجهه تريد أن تصدَّه أو تموتَ دونه . أم أن أبا بكر كان أشدّ من هذه الأم هلعاً وأكثر منها استهانة بالخطر إذا أقبل ؛ لأن إيمانه بالله ورسوله كان أقوى من حب الحياة ومن فطرة الأمومة ومن كل ما تحسّه نفوسنا أو يدور بخواطرنا . وما بالك بإيمان تجسم أمامه فى رسول الله فتجسمت معه كل المعانى المقدسة فى أعظم صورها قدسية وأسماها روحانية ! أتصوّر الساعةَ أبا بكر فى مجلسه ورسولَ الله إلى جانبه ، وأتصور الخطر محدقاً بهما مقبلا عليهما ، فلا يسعفنى خيالى بمثال يبرز كل ما فى هذه الصورة الفذّة من حياة لا نظير لها فى كل صور الحياة .

أين افتداء الملوك والزعماء من افتداء رسول الله

قص التاريخ نبأ أشخاص وهبوا أنفسهم فداء زعيم من الزعماء أو ملك من الملوك . وفى عصرنا اليوم زعماء يقدسهم الناس ، فهم أحب إليهم من أنفسهم . لكن موقف أبي بكر بالغار يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، وهو لذلك جدير بالتحليل يقوم به أشد علماء النفس دقة ، وأكثرهم فى التصوير براعة . فأين إيمان الناس بالزعماء أو بالملوك من إيمان الصدِّيق بالرسول الذي اصطفاه الله فأوحى إليه دينه الحق ! ! وأين لذلك افتداء الناس ملوكَهم وزعماءهم مما جال بخاطر الصدِّيق فى هذه اللحظة التى خَشِى فيها الخطر على حياة الرسول ، ثم كان أشد خشية ألاَّ يدفع الخطر دافع ؟ ! ! هذا مقام من السمو لا سبيل للرقِّ إلى تصويره ؛ ولذا أمسك كتَّابُ السيرة عن الحديث فيه أو كادوا .

وسكن الناس عن الرجلين وتولاهم اليأس من العثور عليهما ، فخرجا من مخبئهما وارتحلا ، يواجهان ما فى الطريق من أخطار لا تقل عما تعرّضا له بالغار . وحمل أبو بكر ما بقى له من ربح تجارته خمسة آلاف درهم . فلما بلغا المدينة وتلقى الناس رسول الله ببِشْر دونه كل بِشر ، بدأ أبو بكر حياته فيها كأى رجل من المهاجرين ، وإن ظلّت له مكانته من رسول الله ، مكانة الخليل والصدِّيق والوزير المشير .

أبو بكر بالمدينة

ونزل أبو بكر بالسُّنْح من ضواحى المدينة على خارجة بن زيد من بنى الحارث من الخَزْرَج . فلما آخى النبيّ بين المهاجرين والأنصار كان أبو بكر وخارجة أخوين . وأدرك أبا بكر أهْلُهُ وأبناؤه الذين كانوا بمكة ، فاستعان بهم على الحياة . فقد عملت أسرته — كما عملت أسرة عمر بن الخطاب وعلي بن أبى طالب — فى الزراعة فى أراضى الأنصار ، مزارعة مع مُلاّكها . ولعل خارجة بن زيد كان من هؤلاء الملاك ؛ فقد توثقت الصلة بينه وبين أبى بكر من بعد ، فتزوج ابنته حبيبة وجاءت منه بأم كلثوم ، وكانت حبيبة حاملا بها حين وفاته .

ولم تقم أسرة أبى بكر معه بدار خارجة بن زيد بالسُّنْح ، بل أقامت أمّ رُومان وابنتها عائشة وسائر أبناء أبى بكر بالمدينة ، بدار تجاور دار أبى أيوب الأنصارى حيث نزل النبى . وكان هو يتردد عليهم ، جاعلا معظم إقامته بالسنح مع زوجه الجديدة .

إصابته بالحمى

وبعد قليل من مُقامه بالمدينه أصابته الحمّى التى أصابت أكثر الذين هاجروا إليها من أهل مكة ، بسبب ما بين موطنهم ومَهْجَرهم من تفاوت فى الهواء ؛ فهواء مكة صحراوى جاف ، وهواء المدينة رطب لكثرة ما فيها من مياه وزروع . يروى عن عائشة أن أباها أصابه من هذه الحمى رَهَقٌ حتى لكان يهذى لشدة ما نزل به منها .

فلما اطمأن إلى موطنه الجديد ، وإلى كدح أهلِه كدحاً أغناهُ عن الأنصار ،

وجّه كل همه إلى معاونة الرسول فى تثبيت دعوته وتوطيد مركز المسلمين ، لا يألو فى ذلك جهداً ولا يضنّ بتضحية .

ولقد كان الغضب لا يعرف إلى هذا الرجل الوادع سبيلا إلا حين يرى خصومَ الدعوة من اليهود والمنافقين يسخرون منها أو يكيدون لها . كان رسول الله قد عقد بين اليهود والمسلمين عهداً أن يكون لكلٍّ حرّيةُ الدعوة إلى دينه ، وأن يباشر من شعائره ما يشاء . وكانت اليهود قد حسبت أوّلَ الأمر أنها قادرة على أن تكسب المسلمين من أهل مكة ليكونوا عونا لهم على الأوس والخزرج . فلما سُقط فى أيديهم وعجزوا عن التفريق بين المهاجرين والأنصار ، بدءوا يكيدون للمسلمين ويسخرون من دينهم . اجتمع رهط من يهود على رجل منهم يقال له فنْحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ودخل عليهم أبو بكر فرآهم كذلك ، فقال لفِنْحاص : « ويحك يافنحاص ! اتّقِ الله وأَسلم ! فوالله إنك لتعلمُ إن محمداً لرسولُ الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل » . قال فنحاصُ وعلى شفتيه ابتسامة السخر والتهكم : « والله ، ياأبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرّع إلينا . وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى . ولو كان عنا غنيًّا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان غنيًّا عنا ما أعطانا! » . وإنما يشير فنحاص بعبارته هذه إلى قوله تعالى : « منْ ذا الّذى يُقرِضُ اللهَ قرْضاً حسَناً فيُضاعِفَهُ لَهُ أضْعافاً كثِيرةً » . فلما رأى أبو بكر أن الرجل يستهزئ بقول الله ووحيه إلى نبيه ، لم يملك نفسه أن ضرب وجه فنحاصَ ضرباً شديداً وقال : « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أىْ عدوالله ! » .

غضبة الصديق على فنحاص

أليس عجباً أن تكون فى أبى بكر هذه الحدة وهو مَن هو لينَ طبع ورقة خُلُق ووداعة نفس ، وأن تكون فيه وقد جاوز الخمسين !

وهـذه الغضبة على فنحاص تذكّرنا بغضبة مثلها ، كانت له قبلها بأكثر من عشر سنين . ذلك حين غلبت الفرسُ الروم ؛ والفرس مجوس ، والروم أهل كتاب . فقد حزن المسلمون لتهكم المشركين بهم وزعمهم أن الروم غُلِبت لأنهم أهل كتاب مثلهم . وتحدّث مشرك فى الأمر أمام أبى بكر وألحّ فى الحديث ، فاغتاظ أبو بكر وراهنه عشرة جمال على أن تغلب الرومُ المجوس قبل عام . ذلك يدلك على أنه لم يكن شىء فى الحياة يثير ثائرة أبى بكر أو يهيج غضبه إلا ما اتصل بعقيدته و بإيمانه الصادق بالله ورسوله . كان هذا دأبه وهو فى الأربعين ، وظل هذا دأبه حين جاوز الخمسين ، وحين تولى الخلافة من بعدُ ودبّر أمر المسلمين .

سلطان الايمان على أبى بكر

وهذا الإيمان الصادق قد ملك على أبى بكر كل مشاعره فى كل أطوار حياته منذ اتّبع الرسول . وأنت تستطيع أن تفسر كل أحواله النفسية وكل أعماله وتصرفاته إذا نظرت إليها من هذه الناحية المعنوية . أمّا ما خلاها فقد كان ضعيف الأثر عنده ؛ فلا تجارته ، ولا أسرته ، ولا أهواؤه ، ولا شىء مما يتأثر به الناس فى الحياة ومما كان يتأثر به كثير من المسلمين فى ذلك العهد ، قد كان ذا سلطان عليه . بل كان قلبه ، وكان عقله ، وكانت روحه ، خالصة كلها لله ورسوله ، وكانت كلها الإيمان الذى بلغ من مراتب الإيمان علياها ، مراتب الصدِّيقين ، وحَسُن ذلك مُقاما !

موقف الرسول فى غزوة بدر

انظر إليه بعد ذلك فى غزوة بدر : عدّل المكيون صفوفهم ، وعدّل النبي صفوف المسلمين للقتال ، وبنى المسلمون عريشاً للنبي فى المؤخّرة ، بإشارة سعد بن معاذ ، حتى إذا لم يكن النصر فى جانبهم لحق رسول الله بالمدينة . وأقام أبو بكر مع النبي فى العريش يرقب معه سير المعركة . فلما ابتدأت ، ورأى محمد كثرة عدوّه وقلة رجاله ، استقبل القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه ، وجعل يَنْشده ما وعده ، ويهتف به أن يتم له النصر ويقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذّب رسولك ! اللهم فنَصْرَك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلِك هذه العصابة اليوم لا تعبد ! »

وما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه ؛ ولم يطمئن حتى خفق خفقة من نُعاس رأى خلالها نصر الله ، وانتبه من بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرّضهم ويقول لهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلا غيرَ مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

موقف الصديق فى بدر

كان هذا موقف الرسول : لم يطمئن إلى انتصار رجاله القليلين على أعدائه الكثيرين ، حتى اتصلت روحه بسرّ من ربه أراه النصر ، وكشف أمامه حجب هذا اليوم الحاسم فى حياة الإسلام . أما أبو بكر فظل إلى جانب الرسول ممتلئاً إيماناً بأن الله لا ريب ناصرٌ دينَه ، ممتلئاً مع إيمانه بالنصر إعجاباً بالرسول فى مناجاة ربه ، وإشفاقاً على الرسول لشدة خوفه من مصير ذلك اليوم . وهذا ما دعاه ، والرسول يهتف وينادي ويناشد ويستنجز ربَّه ما وعده ، ويكرر ذلك ويعيده حتى سقط رداؤه ، أن يُهيب به وهو يردّ الرداء على منكبيه : « يا نبي الله ، بعضَ مناشدتك ربَّك ، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك ! » .

ألف الناس فى كثير من المؤمنين بعقيدة لا يمارون فيها ولا يداجون ، أن يبلغ منهم التعصبُ لعقيدتهم مبلغاً يجعلهم أشدّاء لا يهنون ، غلاظاً لا يلينون . بل إن منهم لكثيرين لا يطيقون النظر إلى وجوه من يخالفونهم فى هذه العقيدة . هؤلاء يرون أن الإيمان الحق يقتضيهم هذا التعصب وهذه الشدّةَ والغلظة . أمّا الصدّيق فكان ، على جلال إيمانه وعظم تعصبه لهذا الإيمان وشدته فيه شدة لا تهن ولا تتردد ، بعيداً عن الغلظة ، قريباً إلى اللين ، عفوًّا عند القدرة ، محسناً متى تم لإيمانه النصر . بذلك جمع فى قلبه بين مبدأين من أسمى المبادئ الإنسانية : حب الحق ، والرحمة . ففى سبيل الحق كان يستهين بكل شىء ، وبالحياة قبل كل شىء . فإذا علَت كلمةُ الحق ، غلب فيه جانبُ الرحمة ، وانقلب مؤمناً بها إيمانَه من قبلُ بالحق ، ضعيفاً لها حتى لتذرف عينه الدمع ترسله مدرارا .

حب الحق والرحمة مجتمعين فى قلبه

تم النصر للمسلمين فى بدر ، فرجعوا إلى المدينة ومعهم أسرى قريش . وكان هؤلاء يطمعون فى الحياة ، وفى العود إلى مكة ، وإن أغلوا الفداء . لكنهم كانوا يخشون شدة محمد وبطشه بهم بعد الذى أذاقوه وأصحابه سنواتِ مُقامِهِ بينهم .

موقفه من أسرى بدر

قال بعضهم لبعض : « لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفاً ، ولا نعلم أحداً آثرَ عند محمد منه » . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر ، إن فينا الآباء ، والإخوان ، والعمومة ، وبنى العمومة ؛ وأبعدنا قريب . كلم صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا » ، فوعدهم خيراً . وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فتحدثوا إليه بمثل حديثهم لأبى بكر ، فنظر إليهم شزراً ولم يجب . وأقام أبو بكر نفسه شفيع هؤلاء القرشيين المشركين عند رسول الله ، فجعل يستعطفه عليهم ويُلين قلبه لهم ، ويدفع حجج عمر فى الشدة بهم ، ويذكر ما بينهم وبين النبى من قرابة . وهو إنما صنع ما صنع من ذلك لما فطر عليه من طيبة القلب والإيمان بالرحمة كإيمانه بالحق والعدل . ولعله كان يرى بعين بصيرته أن لسلطان الرحمة الغلبَ آخر الأمر ، وأن الناس ينزلون على حكم صاحبها وعلى عقيدته ما رأوها رحمةً إنسانية سامية ، مبرأةً من الضعف ، منزهةً عن الهوى ، لا تحركها فى النفس إلا القوة والقدرة ، وإلا سلطان الإنسان على نفسه سلطاناً يكبح من بطش القوة ويُلين من عسف القدرة .

اتجاه حياته بعد بدر

كانت غزوة بَدْرٍ مبدأ حياة جديدة للمسلمين ، وكانت كذلك مبدأ اتجاه جديد فى حياة أبى بكر . بدأ المسلمون ينظّمون سياستهم إزاء قريش وإزاء من ناوأهم من القبائل المحيطة بهم . وبدأ أبو بكر يشتغل مع النبى بهذا التنظيم أضعاف شغله بحماية المسلمين أيام مُقامه بمكة . فقد كان المسلمون جميعاً يعلمون أن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأرها من بدر ؛ وكانوا يعلمون أنهم فى حاجة إلى حماية دعوتهم الناشئة ، وإلى دفع كل معتد عليهم . فلا بد من التقدير لذلك كله ، وتدبير الأمر له . وما كان لأبى بكر ، وموقفه من رسول الله ما رأيت ، أن يشغل نفسه

من بعدُ بغير هذا التقدير والتدبير ، حتى لا تكون فتنة داخلية فى المدينة بتحريض اليهود والمنافقين ، وحتى لا يغزو المدينة غازٍ من الخارج .

كان هو وعمر وزيري الرسول

والحق أن نصر المسلمين ببدر قد أعزّ كلمتهم ، فحرّك فى نفوس منافسيهم حقداً عليهم أىَّ حقد . حرّك فى نفوس اليهود حفائظ كانت ساكنة ، وحرّك فى قلوب القبائل المجاورة للمدينة مخاوف كانت مطمئنة . ولم يكن بدٌّ ، لاتقاء ما ينجم عن هذا وذاك ، من سياسة حكيمة ، وتقدير دقيق ، ومشاورة متصلة بين النبى وأصحابه . وقد اتخذ النبي من أبي بكر وعمر وزيرين يمحص على ضوء ما بينهما من تباين فى الطبع مع صدق فى إخلاص المشورة ، ما ينظم به سياسته الناشئة . هذا مع مشاورته غيرَهما من سائر المسلمين ، مشاورة كان لها أثرها الكبير فى جمع الكلمة ، وفى توزيع التَّبعة على الجميع ، توزيعاً يُشْعِر كلَّ واحد بان عليه منها قسطاً ونصيباً .

وكان من أثر ما تحرك من حفائظ اليهود أن حاصر المسلمون منهم بنى قَيْنُقاع وأجلوهم عن المدينة . وكان من أثر ما تحرك من مخاوف القبائل أن جعل المحيطون بالمدينة منهم يجتمعون للاعتداء عليها ، فإذا سمعوا بخروج محمد إليهم ولَّوْا فراراً وملئت قلوبُهم رعبا .

موقفه فى غزوة أحد

وكانت هذه الأنباءُ تصل مكة ، فلا تصدّ قريشاً عن التفكير فى الثأر لبدر . ولقد ذهبت تلتمس هذا الثأر ، فالتقت بالمسلمين عند أُحُدٍ ، فدارت الدائرة وجه النهار عليها ؛ لكن مصير اليوم تغير حين خالف رماة المسلمين أمر النبى ، وتركوا مواقفهم وانطلقوا يغنمون مع الغانمين . فقد اهتبل خالد بن الوليد الفرصة ؛ فأوقعت قريش بالمسلمين فاضطربوا ؛ وأصيب النبى بحجارة كان المشركون يقذفونها ، فوقع لِشِقّه ، وأُصيب فى وجهه ، وتنادت قريش أنه مات . ولولا أن أحاط به من أبطال المسلمين من افتدَوْهُ بأنفسهم وأرواحهم ، لكان لله فى خلقه من يومئذ شأن غيرُ الشأن . ومن يومئذ صار أبو بكر أكثر ملازمةً للنبى فى غزواته وحين مقامه بالمدينة .

وأنت تذكر أن حياة المسلمين ، إلى أن استقر لهم الأمر بعد فتح مكة وإسلام ثقيف بالطائف ، قد كانت حياة غزو ، ودفع للغزو ، أو استعداد لدفعه . دع عنك الغزوات الصغرى التى كانت أدنى إلى المناوشات . فقد كان اليهود ، وعلى رأسهم حُيَيُّ بن أخطب ، لا يفتئون يؤلّبون على المسلمين . وكانت قريش تبذل جهد الطاقة لإضعافهم والقضاء على سلطانهم . فكانت غزوات بنى النَّضير والخندق وبنى قُرَيْظة وما تخللها من الغزوات الصغرى ، أثر سياسة اليهود ، وحقد قريش .

صار أبو بكر أكثرَ ملازمة للنبي فى هذه المواقف والمواقع جميعاً ، وهو أشدّ ما يكون برسالته إيماناً وتصديقاً . فلما اطمأن رسول الله إلى مَنَعة المدينة وآن له أن يوجّه خُطته توجيهاً جديداً يمهّد الله به لإكمال دينه ، كان لأبى بكر مواقف زادت المسلمين اقتناعاً بأنه الرجل الذى يلى رسول الله مكانة من نفوسهم ، وسموّاً فى تقديرهم .

موقفه فى الحديبية

بعد ست سنوات من هجرة المسلمين إلى المدينة أذّن محمد فى الناس بالحج إلى البيت العتيق . وبلغ قريشاً مسيرةُ القوم ، فأقسموا لايدخل محمد مكة عليهم عنوة . وأقام محمد وأصحابه بالحُدَيْبِيَةِ بظاهر مكة ، وهو مستمسك بالسلام ، رافض كلَّ دعوة إلى منازلة قريش ، معلن أنه جاء حاجًّا ولم يجئ غازياً . وتبادل مع قريش الرسل ، وانتهى الأمر بينه وبينهم إلى عهد رضى به أن يرجع عنهم عامَهُ وأن يعود إليهم العامَ الذى يليه .

غضب كثير من المسلمين ، بينهم عمر بن الخطاب ، لتراجعهم ورجوعهم ، ورأوا فى هذا العهد إعطاءً للدنيّة فى دينهم . أما أبو بكر فآمن وصدّق بحكمة رسول الله . فلما نزلت سورة الفتح آمن الناس جميعاً بأن عهد الحُديبية كان فتحاً مبيناً ، وبأن أبا بكر كان الصدّيق فى هذه ، كما كان فى غيرها من مواقفه .

ازدياد قوة المسلمين وإقبال الوفود

كانت الدعوة الإسلامية تزداد على الأيام كمالا ؛ وكان المسلمون بالمدينة يزدادون بذلك بأساً وقوة . وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود فى خَيْبَر وفدَكَ وتيماء ، وأخضعوهم لسلطانهم ، تمهيداً لإجلائهم عن بلاد العرب . ثم كان من مظاهر قوتهم وكمال الدعوة أن أرسل محمد إلى الملوك والأمراء بفارس ، وبُزَنطية ، ومصر ، والحيرة ، واليمن ، وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات ، يدعوهم إلى الإسلام . فأما المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ، فذلك فتح مكة ، وحصار الطائف . بهذا كله تألّق نور الدين الجديد فى شبه الجزيرة ، وجاوزها إلى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا قابضتين على ناصية العالم فى ذلك العصر : الروم ، وفارس . وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخُطة الحذر ، حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يحاول أن يغشّى على هذا النور أو أن يضعف سلطانه .

تألق نور الاسلام

وحين رأت العرب هذه القوة جاءت وفودهم تترى من أنحاء شبه الجزيرة ، تعلن إيمانها بالدين الجديد . أليس هذا الداعى إليه قد كان وحيداً فريداً ، وها هو ذا قد انتصر على اليهود ، وعلى النصارى ، وعلى المجوس ، وعلى المشركين !! وهل ينتصر إلا الحق ! وهل آية أدلّ على أن دعوته هى الحق الخالص من انتصاره على هؤلاء جميعاً ، وهو لا يبتغى عليهم سلطانا ، ولا يطلب إليهم إلا أن يؤمنوا بالله ، وأن يعملوا الصالحات !! هذا منطق إنسانى أقرّه الناس فى كل زمن وآمنوا به أينما وجدوا . وهو منطق يقره العقل ما أثبتت السنون قوة حجته فلم يغلبه غالب .

حج أبى بكر بالناس

وأذِن الله أن يتم المسلمون فروض دينه . والحج تمام هذه الفروض . لكن تتابع الوفود لم يتح لرسول الله أن يغادر المدينة إلى بيت الله الحرام . لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالناس ، فخرج فى ثلاثمائة من المسلمين ، حجّوا وطافوا وسَعَوْا . وفى هذا الحج أعلن على بن أبى طالب إلى الناس — أو أعلن أبو بكر فى رواية أخرى — أن لا يحجّ بعد ذلك العام مشرك . ثم أجّل الناس أربعة أشهر ، ليرجع

كل قوم إلى مأمنهم و بلادهم . ومن يومئذ إلى اليوم ، و إلى ما يشاء الله ، لم يحج إلى البيت الحرام مشرك ، ولن يحج إليه مشرك .

حجة الوداع ثم بعث أسامة

وفى السنة العاشرة من الهجرة ، حجّ رسول الله حِجّة الوداع ، وحج أبو بكر معه . وسار صلى الله عليه وسلم ، وصحبه نساؤه جميعاً ، وتبعه من العرب مائة ألف أو يزيدون . ولم يطل مُقام النبي بالمدينة بعد عوده من الحج ، حتى أمر بتجهيز جيش لِجَبٍ إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ، ومنهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش بالجُرْف ، ثم ترامى إليه أن رسول الله مرض ، فلم يتحرك إلى غرضه ؛ لأن المرض اشتد بالنبي شدة أثارت مخاوف الناس عليه .

النبي يأمر أن يصلى أبو بكر بالناس

ولما ثقُل عليه المرض أمر أن يصلّى أبو بكر بالناس . روى عن عائشة أنها قالت : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بلال يُؤذِنه بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . قلت : يارسول الله ، إن أبا بكر رجل أَسيفٌ و إنه متى يقم مَقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرت عمر ! قال : مروا أبا بكر يصلى بالناس . فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مَقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرت عمر !. فقالت له حفصة ، فقال : إنكن لأنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ! فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً » .

وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبي . و إنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلِّى بالناس . وكان عمر جهير الصوت ، فلما كبَّر فى المسجد سمعه محمد من بيت عائشة ، فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ولقد ظن بعضهم أن النبي استخلف أبا بكر من بعده بما أنه قد أمره بالصلاة مكانه ؛ فالصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

وفى أثناء هذا المرض خرج محمد إلى المسلمين يوماً بالمسجد ، وقال فيما قاله لهم : « إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا و بين ما عنده ، فاختار

ما عند الله » ثم أمسك . وقد أدرك أبو بكر أن النبي إنما يعنى نفسه ، فأجهش بالبكاء وقال : « نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » . وأمر محمد أن تقفل أبواب المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال مشيراً إلى الصدّيق : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

خليل رسول الله

وفى اليوم الذى قبض فيه النبي خرج ساعةَ الصبح إلى المسجد ، معتمداً على عليّ بن أبى طالب والفضل بن العباس ، وكان أبو بكر يصلّى ساعتئذ بالناس . فلما رأى الناس النبيّ فرحوا وتفرّجوا ، فأشار إليهم أنِ اثبُتوا على صلاتكم . وأحسّ أبو بكر أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فتأخر عن مكانه ، فأومأ إليه النبي : أنْ كما أنت ، وجلس رسول الله عن يسار أبى بكر فصلّى قاعداً .

وعاد النبي بعد هذه الصلاة إلى دار عائشة . لكنه ما لبث أن عادته الحمى ، فدعا بإناء فيه ماء بارد جعل يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه . وبعد سويعة من ذلك اختار الرفيق الأعلى ، واختار ما عند الله .

وترك رسول الله هذه الحياة الدنيا ، وقد أكمل الله للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته . فماذا يصنع العرب من بعده ؟ إنه لم يستخلف خليفة ، ولم يضع للحكم نظاماً مفصّلا . فليجتهدوا ، ولكل مجتهد نصيب .